الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلى

١

نشأة الشعر الجاهلى وتفاوته فى القبائل

لا ريب فى أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى استوى فى صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة فى الوزن والقافية وفى المعانى والموضوعات وفى الأساليب والصياغات المحكمة ، وهى تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلا [١] تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء فى صياغة القصيدة العربية ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة فى الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفى ديوان امرئ القيس [٢] .

عُوجا على الطَّلل المُحيل لأَننـــا ... نبكى الديار كما بكى ابنُ خِذامِ

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التى قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف فى الأطلال .

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلى فى نظام معين من المعانى والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم فى الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة فى

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ١١٤ وعوجا : اعطفا . المحيل : الذى أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون فى تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت فى أوزانها وقوافيها ، فهى تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها وما تنتهى به من روىٍّ .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها، وحقًّا توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عَبيد بن الأبرص الأسدى (١) :

أَقْفَـــر من أهله ملحوبُ ❊ فالقُطَبِيَّـــاتُ فالذَّنوبُ

فهى من مخلّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف فى بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى فى الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها (٢) :

عينـــاك دمعهما سِجَالُ ❊ كأن شــأْنيهما أَوْشــالُ

ومثلهما فى هذا الاضطراب قصيدة المُرَقّش الأكبر (٣) :

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ ❊ لو كان رَسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

ما ذَنْبُنا فى أن غَزَا مَلِكٌ ❊ من آل جفنة حازمٌ مُرْغم

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادى (٤) :

تعرف أمسِ من لَميسَ الطَّلَلْ ❊ مثل الكتاب الدارس الأَحْوَلْ

---

(١) انظر القصيدة فى المعلقات العشر وفى ديوان عبيد . وملحوب والقطبيات والذنوب : أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجل أى صب بعد صب . شأنيهما : مثنى شأن وهو مجرى الدمع. أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧.

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢ / ١٥٣ .
الأحول : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

فهى من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أَنعِمْ صباحًا عَلْقَمَ بنَ عَدِىْ   أثويتَ اليومَ أَمْ تَرْحَلْ

فإنه من وزن المديد . ويماثل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته[١] :

قد حان أَن تَصْحُوَ أو تُقْصِرْ   وقد أَتى لما عهدتَ عُصُرْ

ومن هذا الباب نونية سُلمِىّ بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة[٢] :

إن شِـــوَاءً ونَشْـــوَةً وخَببَ البـــازلِ الأَمونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوق أنها خارجة عن العروض التى وضعها الخليل . واضطرابُ هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبث بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامة ، ومما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كأَن أَباناً فى أفانين وَدْقِه   كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مزمَّلُ[٣]

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوِى عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالحُداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ .

(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٨٣/٣ والمرزوق رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .

(٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . البجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

فى أثناء سيرها وسُرَاها فى الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى[١] ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعًا فى الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبيًّا لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون فى الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون فى الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم فى الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شىء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلى وحِقبه الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التى تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادى . ولم تكن تختص بهذا الشعر فى الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينسَب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندى وعدىّ بن رَعْلاء الغسانى[٢] والحارث بن وَعْلة الجرمىّ القضاعى[٣] ومالك بن حَرَيم الهَمْدانىّ[٤] وعبد يغوث الحارثى النَّجْرانى[٥] والشَّنْفرى الأزدى[٦] وعمرو بن معد يكرب المَذْحجى[٧] ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين فى المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام فى طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم فى عشر طبقات وجعل فى كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

---

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات فى مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المرائى كما أضاف تسعة فى مكة وخمسة فى المدينة وخمسة فى الطائف وثلاثة فى البحرين، وعدّ لليهود ثمانية. ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوى والحضرى كما يجد بين البَدْو اليمنى والرَّبعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج فى الأغانى لكثيرين منهم، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوّتْ شهرتهم، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » [١] . ومن يقرأ فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً فى ديوان قبيلته [٢] . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الرَّبعية والقحطانية ، واقرأ فى الأغانى والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرةَ الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها فى الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت فى العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت فى مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت فى جمهورها مضرية بينما كانت تلك فى معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فمكة كانت قليلة الشعر [٣]، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة[٤] . ووقف الجاحظ فى حيوانه عند جانب

---

(١) انظر مقدمتة لكتابه الشعر والشعراء . (طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٩٢ — ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

من حظوظ القبائل وتفاوتها في ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون ببكر كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف "سكان الطائف" أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجاري ملوك اليمن ومجاري سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان في ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصُلْبه شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حِصْن ولا عُيينة بن حصن ولا لحمَل بن بدْر شعر مذكور »⁽¹⁾.

ومن المحقق أنه فُقد كثير من الشعر الجاهلي ، إذ عدتْ عليه عوادي الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويُروَى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير⁽²⁾ » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو ، فقد بقي منه كثير ألِّفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدي رواة أمناء سجلوه ودونوه .

---

(١) الحيوان ٤ / ٣٨٠ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

٢

الشعر الجاهلى شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لڤرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكوّن من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتى يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أوحين يعلِّم أوحين يمثِّل ، فهو فى كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخى يحكيه أو علمى تهذيبى يرويه أو تمثيلى مسرحى يؤدِّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائى ، لأنه يجول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوِّره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمَّ سموه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذر ويعاتب، أوحين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله فى جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنَّى غناء، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه، فهم يروون أن المهلهل غنىَّ فى قصيدته :

طفلةٌ مـا ابنةُ المحلِّلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ فى العناقِ[1]

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهانى يشير إلى أن شاعراً جاهليًّا تغنَّى ببعض شعره من مثل السُّليْك بن السُّلَكة [2] وعلقمة بن عَبَدة الفحل والأعشى ، وكان يوقِّع

---

(١) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥١ وما فى البيت زائدة ، وطفلة : رخصة ناعمة .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٣٤ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصّنج، ولعله من أجل ذلك سمى صنّاجة العرب [١] . ويقول أبو النجم فى وصف قينة [٢] :

تَغَنَّىْ فإن اليوم يومٌ من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امرؤُ القيس أوعمرو

وهو يقصد بعمرو، عمرو بن قَمِيئة . ويقول حسان بن ثابت [٣] :

تَغَنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغنـــاء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذى كانوا يحدون به فى أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيًّا عامًّا .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمِزْهر والدفّ وكانا من جلد وكالصَّنْج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك، وكالبَرْبط وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عَبَدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط [٤] وكانوا كذلك فى الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدة وهُرَيْرة فى اليمامة [٥] والأخيرة هى صاحبة الأعشى التى ذكرها فى معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جُدْعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس [٦] وفى أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحر الجزُر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور وتعزف علينا القيانُ وتسمع بنا العرب [٧]. وفى السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خَطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٠٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٢١٤ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٦٠ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٢٤١ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٦/١٤ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١١٣ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٣٢٧ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٨٢ .

إحداهما ، وفرّت الأخرى[١] . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا إحدى القيان أن تغنى بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب [٢] . ويكثر ذكر هؤلاء القيان فى شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كنّ يضربن عليه من آلات الطرب ، كقول علقمة فى ميميته [٣] :

قد أشهد الشَّرْب فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ والقوم تصرعهم صهْباء خُرْطومُ

ويقول الأعشى فى معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصَّنج يسمعه إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[٤]

ولطرفة فى معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الغناء فى الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين فى حفلاتهم لاعبات على المزاهر[٥] ، وفى الطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس[٦] ، وأكبر الظن أنهن كن يقرنّ هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن يؤلفن فى الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففى الطبرى والأغانى أن هنداً بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد وكانت هند تغنى فى تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها [٧] :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرشِ النَّمارِقْ[٨]
أو تدبروا نفارق فراقَ غيرِ وامق[٩]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٥٣ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .
(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء : الخمر ، والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .
(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : اللابسة ثوباً واجداً .
(٥) العمدة ١/٣٧ .
(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١/١١٢٦ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٦ وتاريخ الطبرى ١/١٤٠٠ .
(٨) النمارق : جمع نمرقة وهى الطنفسة والوسادة الصغيرة .
(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء دينى يرتلونه فى أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق ثبير كيما نُغير » . وكانوا فى أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دمائها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذى شاع بينهم فى الجاهلية . وربما كان فى اسم الداجنة والمدجنة ، وهى القينة تغنى فى الدَّجْن وحين ظهور الغيم فى صفحة السماء[1] ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر فى الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائى تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلى : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزَجُ فالخفيف الذى يُرْقَصُ عليه ويُمْشَى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزّأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »[2] .

ولعل فى اقتران النصب بالمراثى ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينيًّا ، فهم يتغنون به فى الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذى كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذى يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة فى الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى مشبه لنفس الجو الذى نظم فيه اليونان شعرهم الغنائى فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

---

(١) انظر مادة دجن فى لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص١٣٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها ، فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قَرْع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع فى مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتى لأبياتهم كقول امرئ القيس فى معلقته يصف الفرس :

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبلٍ ، مُدْبِرٍ ، معًا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ويكثر هذا التقطيع فى أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التى يستهلها بقوله :

عفتِ الديارُ محلُّهـا فمُقامها بِمِنًى تأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية، وخارجية، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته فى كلمتين متتاليتين . ولا نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل فى الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران فى حُداتهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثر فيه الحذف وكثر التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر [1]، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُداءً وغير حداء أحدث فيه تغيرات شتى .

---

(١) انظر باب الرجز فى العمدة لابن رشيق .

٣

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربى جاهليًّا وغير جاهلى إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبى ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تامًّا باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسى موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكرى : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه [١] » وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات فى الشعر الجاهلى ترتيباً تاريخيًّا ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا فى ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو فى أصله تعويذات للميت حتى يطمئن فى قبره ، وفى أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التى تكمن فيها آلهتهم والتى تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة[٢] .

ويظهر أنه كانت لا تزال فى نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء فى القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول فى بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) وردَّ عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً فى مثل: (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل: (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من رب العالمين) . ويقول جلَّ وعز فى سورة الشعراء : (وما تنزلتْ به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك: (هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوُون ألم تر أنهم فى كل وادٍ يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظَلموا أىَّ منقلب ينقلبون) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

---

(١) ديوان المعانى ١/ ٩١ . (طبع دار المعارف) ١/ ٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث فى وعيه الشعر يسمَّى مِسْحلا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قَطن، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهُنَّام[١] .

وظل بعض الشعراء فى الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول[٢] :

إنى وكلُّ شاعرٍ من البشَرْ شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ

وفى أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّة خاصة، ولعلها كحلل الكهان ، وَحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقّى رأسه وانتعل نعلا واحدة[٣] ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم فى الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التى يصنعها فى حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء فى الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطرُّوا اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وَرْقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً، فنظم زهير أبياتاً يتوعده بالهجاء المقذع ، يقول فيها[٤] :

ليأتينّك منى منطقٌ قَذَعٌ باقٍ كما دنَّس القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

(١) انظر المؤتلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة جهم فى لسان العرب ، والحيوان ٦/٢٢٦ والقصيدتين رقم ١٥، ٣٣ فى ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٦/٢٢٩ .

(٣) امالى المرتضى (طبعة عيسى الحلبى) ١/١٩١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٥٥ وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم .

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه [١] . وواضح أن زهيراً يستخدم فى وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرَّجْس والإثم . ويروى أن رجلا يسمى زُرْعة بن ثوب من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزّرد بن ضِرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلا لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا، وركب إلى مزرّد وقصّ عليه القصة ، فقال مزرّد : أنا ضامن لك أن تُرَدَّ عليك بأعيانها، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة، ويطلب إليه أن يرد الإبل، ونراه يعوِّذها بهجائه ، فهى إن لم ترد ستكون ناراً تأتى على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول [٢] :

فيا آلَ ثَوْبٍ إنما ذَوْدُ خالد ... كنار اللَّظَى، لا خير فى ذَوْدِ خالدِ [٣]

بهن دُروءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٌ ... لها ذَرِباتٌ كالثُّدِيِّ النواهدِ [٤]

جَرِبْنَ فما يُهْنَأْنَ إلا بغَلْقةٍ ... عَطينٍ وأبوالِ النساء القواعدِ [٥]

وقد تحولوا يصبُّون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد فى السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرتْ به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرَارَةُ بن عُدَس وهجى عبد الله بن جُدْعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عُيَيْنة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون [٦] » وبمقدار ما

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .

(٢) المفضليات ص ٧٩ .

(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٤) دروء : جمع درء وهو النتوء . والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة : طاعون الإبل . الذربات : جمع ذربة وهى رأس الخراج ، النواهد : النواهض .

(٥) يهنأن : يطلين . الغلقة : شجر يدبغ به الجرب . عطين يريد أنه لا يدبغ بها إلا بعد العطن ، القواعد : العجائز .

(٦) الحيوان ٢/٩٣ .

كان فى القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذَّرْء (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء فى الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذَّرْء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير خملوا أو دخلوا فى غمار العرب وغرقوا فى معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَب بهم المثل فى قلة ونذالة ، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالا فى العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غَنِىّ أو باهلة . . فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خير كثير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عَيْلان ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عَبْس وعبد الله بن غطفان ثم غنىّ وباهلة واليَعْسوب والطفاوة ، فالشرف والخطر فى عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنىّ مما لقيتْ من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقوام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة وهاربة البَقْعاء (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ وثَوْر وعُكْل وتَيْم ومزينة ، فى عكل وتيم ومُزَيْنة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشىء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيم . وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما فى ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن عُلاثة وكما بكى عبد الله بن جُدْعان من بيت لخداش بن زهير»[١] .
وفى السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه بأهاجيهم فى قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ فى هجاء القرشيين : «لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْل» وفى ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء فى نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم فى القتال ، ولذلك قرنه عبد قَيْس ابن خفاف البرجمى إلى ما يَلْتَقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول[٢]:

فأصبحتُ أعددتُ للنائبا ت عِرْضًا بريئًا وعَضْبا صَقيلا[٣]
ووَقْعَ لسانٍ كحد السِّنانِ ورُمحًا طويل القناة عَسُولا[٤]
وسابغةً من جيادِ الدُّرو ع تسمع للسيف فيها صَليلا
كماء الغَديرِ زَفَتْه الدَّبُورُ يَجُرُّ المدجَّجُ منها فُضولا[٥]

فاللسان كان يَنْكأ بهجائه فى الأعداء نكأ السيوف والرماح . ويخيل إلى الإنسان كأنما تراصّ شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها فى صفوف ، وقد أخذ كل منهم يَريش سهام هجائه ويرمى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذَ السهام وأصمّها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم فى الأسواق وخاصة سوق عُكاظ ، فينشدون أهاجيهم لتذيع ، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزى وعار ، وفى ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكرى لقيس بن مسعود الشيبانى[٦]:

ولا تُوعِدنّى إننى إن تُلاقنى معى مَشْرفىٌّ فى مضاربه قَضَمْ[٧]
وذمٌّ يُغَشِّى المرءَ خِزْيًا ورهطه لدى السَّرْحة العَشَّاء فى ظلها الأَدَمْ[٨]

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

---

(١) الحيوان ١/٣٥٧ – ٣٦٣ .
(٢) المفضليات ص ٣٨٦.
(٣) العضب : السيف القاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .
(٤) العسول : اللين المعصى .
(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر منها فضولا كناية عن أنها سابغة تفضل عن أطرافه.
(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .
(٧) المشرفى : السيف ، وقضم : فلول من كثرة الطعن .
(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون فى حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مُثلهم التى صورناها فى غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهى تعنى عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هى إلا أن يدخل الشاعر فى الهجاء فإذا هو يخلّص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهى لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهى تفرّ فى الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفى الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، واقرأ فى المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستراه يذكر أمجاد قبيلته فى أيام بزاخة والنّسار وطَخْفة والكُلاب وذات السُّلَيم ، واقرأ قصائد بشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر فى الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جَرْم والرباب وجُذام وبنى سليم وبنى كلاب وبنى أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون فى الأعراض ويطعنون فى الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدى فى هجاء بنى عامر وقد غدروا بأسدى منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدّياً أمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البِغاء [1] :

سائلْ معدًّا مَنِ الفوارسُ لا ... أَوْفَوْا بجيرانهم ولا غنِموا

فِدًى لسَلْمى ثوبايَ إذ دَنس الـ ... ـقومُ وإذ يَدْسَمون ما دَسِمُوا [2]

أنتم بنو المرأة التى زعم الـ ... ـنَّاسُ عليها فى الغَىِّ ما زعموا

واسترسل يَصِمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه فى الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعىٌّ فى قومه زَنيم . وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع فى الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

---

(١) المفضليات ص ٤١ .

(٢) ثوباى : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأمهم .

فى العصر الإسلامى ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعار ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثَمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قَيْس بن خُفاف البُرْجمى [١] :

لعنَ الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ ابنَ ذا الصائغ الظلومَ الجهولا
يجمع الجيشَ ذا الألُوف ويغزو ثم لا يرزأ العدوَّ فَتيلا[٢]

وكان النعمان كثير الوقائع فى قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الخذّاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول فى بعضه [٣] :

نعمانُ إنك خائنٌ خَدِعٌ يُخْفِى ضميرُك غير ما تُبْدِى

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمرو بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفْرَدُ بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً فى تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سَعرتهم الحروب ، وأمدّها شعراؤهم بوقود جَزْل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح فى كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار مَنْ خلفوهم باسم الحماسة ، فهى التى تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهى ديوانهم الذى يسطّر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . واقرأ فى المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصَبْرها فى

---

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .
(٢) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة فى شق النواة .
(٣) المفضليات ص ٢٩٦ .

الملمّات وكرمها فى الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف ، وفى أثناء ذلك يصوّب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً .

ونحس فى هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حدّ له ، فإذا ثأرت لنفسها وشفتْ غلّها وحقدها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصِّمَّة التى يتغنى فيها بأنه ثأر من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول [١] :

ويا راكباً إما عرَضْتَ فبلِّغَنْ ... أَبا غالبٍ أن قد ثأَرْنا بغالبِ [٢]
قتلتُ بعبد الله خير لِدَاتِه ... ذُؤابَ بن أَسماء بن زيد بن قاربِ [٣]
فلليوم سُمِّيتم فَزارةُ فاصبروا ... لوَقْعِ القَنَا تَنْزون نَزْوَ الجَنادبِ [٤]
تكُرُّ عليهم رَجْلَتِى وفوارسى ... وأُكْرِهُ فيهم صَعْدَتى غير ناكبِ [٥]
فإن تُدْبِروا يأْخذْنكم فى ظهوركم ... وإن تُقْبِلوا يأْخذْنكم فى التَّرائبِ [٦]
وإن تُسْهِلوا للخيل تُسْهِلْ عليكمُ ... بطعنٍ كإيزاغ المَخاض الضواربِ [٧]
ومُرَّةَ قد أخرجْنَهم فتركْنَهم ... يروغون بالصَّلعاءِ روغَ الثعالبِ [٨]
وأشجعَ قد أدركْنهم فتركنهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كل جانبِ
وثعلبةَ الخُنْثَى تركنا شريدهم ... تَعِلَّةَ لاهٍ فى البلاد ولاعبِ
فليت قبورًا بالمخاضة أخبرَتْ ... فتُخبِرَعنا الخُضْرَ خُضْرَ مُحاربِ [٩]

---

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .
(٢) عرضت : أتيت العروض، يريد مكة والمدينة وما حولهما .
(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكفء .
(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .
(٥) رجلتى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .
(٦) الترائب : عظام الصدر .
(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض . المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقح ، وإيزاغها أن ترمى ببولها شبه رشاش الطعنة من الدم ببولها ورشاشه .
(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلعاء موضع هو مكان معركته مع مرة .
(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْناهمُ بالخيل حتى تملأتْ عَوافى الضباع والذئاب السَّواغبِ[١]
ذرينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أُلاقى بإثْرٍ ثُلَّةً من محاربِ[٢]

وواضح أنه يتشفى من قتلة أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين فى الأرض . ويصور ما لقيته مُرَّة فى الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببنى ثعلبة وبنى محارب ، حتى شبعت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرَّة عليهم . وفى كل مكان يدوِّى مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم فى هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المُعْلَمة المشهورة من مثل قوله :

متى ننقل إلى قومٍ رَحانا يكونوا فى اللِّقاء لها طَحِينا
يكون ثِفالُها شرقىَّ نجـد ولُهْوَتُهـا قضاعةَ أجمعينا[٣]
نُطاعن ما تراخى الناسُ عنـا ونضرِبُ بالسيوف إذا غُشينا
بِسُمْرٍ من قَنَا الخَطِّىِّ لُدْنٍ ذوابلَ أو ببيضٍ يَعْتَلِينا[٤]
نشقُّ بها رءُوسَ القوم شَـقًّا ونُخْلِيهـا الرِّقاب فَتختلينا
كأنَّ جماجم الأبطالِ فيهـا وُسُوقٌ بالأماعز يرتمينا[٥]
وَرِثْنا المجد قد علمتْ مَعَدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا[٦]
ونحن إذا عمادُ الحىِّ خَرَّت على الأَحْفاض نمنع من يلينا[٧]
نجذُّ رءُوسهم فى غير وِتْرٍ فما يدرون ماذا يتَّقونَا[٨]

---

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافى : الجائعة ، وكذلك السواغب .
(٢) الثلة : الجماعة من الناس .
(٣) الثفال : خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال ما يطحن ، اللهوة : القبضة من الحب .
(٤) توصف الرماح بالسمرة لذبولها ، وقنا الخطى : نسبة إلى الخط وهى بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن : المرنة . البيض : السيوف .
(٥) الأماعز : الأراضى الصلبة ، الوسوق : جمع وسق وهو الحمل .
(٦) يبين : يتضح .
(٧) العماد : جمع عمود ، خرت : سقطت ، الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة الحى للحرب .
(٧) الوتر : الثأر ، ونجذ : نقطع .

كأَن سيوفنـــا فينـــا وفيهم مخاريقٌ بـأَيدى لاعبينا[1]
كأَن ثيابنـــا منـــا ومنهم خُضِبْن بأُرْجوانٍ أَو طُلينا[2]

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذى يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها فى نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التى يذيقون بها أعداءهم كئوس الموت المرة ، ومدّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رءوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين ،وهم يقتلون فيهم ، كما يُقْتَل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة ،من مثل قول المفضَّل النُّكْرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول [3] :

كأَن هَزيزنا يوم التقينا هَزيزُ أَباءةٍ فيها حريقُ[4]
وكم من سيدٍ منـــا ومنهم بذى الطَّرْفاء منطقهُ شَهيقُ[5]
فـأَشبعْنا السباع وأَشبعـوها فراحتْ كلهـا تَئِقٌ يَفُوقُ[6]
فأَبكيْنـــا نساءهمُ وأَبكوا نساءً ما يسوغُ لهن رِيق
يُجاوبْنَ النِّياحَ بكل فَجْرٍ فقد صَحِلَتْ من النَّوْح الحُلوقُ[7]

وطبيعى وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون فى وصفها ووصف الخيل التى يركبونها فى اللقاء . وممن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حَجر فى لامية له مشهورة أطال فيها فى تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً فى المفضليات

---

(١) المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها ، لعبة كانت عندهم .
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٣ وما بعدها .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباءة : أجمة الغاب .
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تئق : ممتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات[١] ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، وممن اشتهر فى هذا الوصف أبو دُؤاد الإيادى وزيد الخيل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفى الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلا رفيعاً لهم فى حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ فى ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول[٢] :

وإن تسألينى فإنى امرؤٌ أهين اللئيمَ وأحْبُو الكريما
وأَبنى المعالىَ بالمكرُماتِ وأُرْضى الخليل وأَرْوِى النديما
ويحمد بَذْلى له مُعْتفٍ إذا ذمَّ من يَعْتَفِيه اللئيما[٣]
وأَجْزى القُروضَ وفاءً بهــا ببُؤْسَى بَئيسى ونُعْمى نَعيما[٤]
وقومى فإنْ أَنت كذَّبْتنى بقولىَ فاسئلْ بقومى عليما
يُهينون فى الحق أَموالهم إذا اللَّزَباتُ انْتحَيْن المُسِيما[٥]
طوالُ الرماح غداة الصباحِ ذَوُو نَجْدَةٍ يمنعون الحريما

وهو يذكر فى البيت الثانى أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمر ، ويكثر فى حماستهم تمدحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر[٦] ، وكأن فى ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع عن طرفة وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها فى الشعر الجاهلى على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

---

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .

(٢) المفضليات ص ١٨٣ .

(٣) المعتفى : السائل فى غير طلب .

(٤) البؤس والبئيسى بمعنى ، يقول يجزى بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .

(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ، المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من السائمة .

(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولا بها من هذا الباب إلى وصفها فى ذاتها وصفاً طريفاً .

ومن الموضوعات التى تتصل اتصالا واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم [١] ، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم . وكان يشرك الرجال فى ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن يَنُحْنَ على القتيل حتى تثأر القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذى نعرفه فى مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباها [٢] . وفى هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن ذلك على القبر وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل فى حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن فى لحده . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن فى فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحاً وندباً حاراً . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك فى أن الصورة القديمة لهذا التأبين هى تلك النقوش التى عثروا عليها فى أنحاء مختلفة من الجزيرة ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذى نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مردّ لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهن

---

(١) المفضليات رقم ١٠٩ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٢١٠ .

التى لا تنازَعُ هى الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية فى بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما ندبت به صخراً :

قَذًى بعينكَ أم بالعين عُوَّارُ ... أم ذرَّفَتْ أن خلتْ من أهلها الدارُ[1]
كأن عينى لذكراهُ إذا خَطرتْ ... فَيْضٌ يسيل على الخدَّين مِدْرارُ[2]
فالعين تبكى على صَخْرٍ وحقَّ لها ... ودونه من جديد الأرض أستارُ[3]
تبكى خُناسُ وماتنفكُّ ماعَمَرَتْ ... لها عليه رنينٌ وهْى مِقْتَارُ[4]
بكاء والهةٍ ضَلَّتْ أليفتَها ... لها حَنينان: إصْغارٌ وإكبارُ[5]
ترْعَى إذا نَسِيَتْ حتى إذا ذكرتْ ... فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ
وإن صَخْرًا لَتَأتَمُّ الهُدَاةُ بهِ ... كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ[6]

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسّ داعى الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من تَرْجيل شعره ووضعه فى مدارج الكفن ، ثم لَحْده ودفنه ، وتنسَبُ للممزّق العبدى أو ليزيد بن الخذّاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذى ينتظره ، يقول فيها[7] :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ[8]
قد رجَّلونى وما رُجِّلْتُ من شَعَث ... وألبسونى ثيابًا غير أخْلاقِ[9]
وأرسلوا فتيةً مِن خيرهم حسبًا ... ليُسْندوا فى ضريح التُّرْب أطْباقى[10]

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعا .
(٢) مدرار : كثير .
(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .
(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .
(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .
(٦) العلم : الجبل .
(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .
(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دنوه .
(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق : الممزقة .
(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد فى قصيدة المرقش[١]:

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فمديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين ، على نحو ما صنع دُرَيْد بن الصِّمة فى مرثية أخيه عبد الله [٢] .

أرثَّ جَديدُ الحَبْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ بعاقبةٍ وأخلفتْ كلَّ موعِدِ

وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثى أخاه مصوراً مصرعه ووله به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا فى مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حَجَر لفَضالة بن كَلَدَة الأسدى ، وفيها يقول [٣] :

أيَّتُها النفسُ أجْمِلِي جَزَعَا إن الذى تحذرينَ قد وقعا
إن الذى جمَّع السماحة والنَّـ ـجْدةَ والحزمَ والقُوَى جُمَعا
الألمعىّ الذى يظنُّ لك الـ ـظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا[٤]
المخلفَ المتلفَ المرزَّأَ لم يُمْتَعْ بضعفٍ ولم يَمُتْ طَبِعَا[٥]
أوْدى وهل تنفع الإشاحةُ من شىءٍ لمن قد يحاول البِدَعَا[٦]

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .
(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث : أخلق . بعاقبة : بآخرة .
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغانى ٧٤/١١ .
(٤) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور فلا يخطىء وأنه فطن صادق الظن جيد الفراسة .
(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : اللئيم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك [١] :

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبى دؤاد الإيادى يرثى فيها من أودَى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول فى مطلع رثائهم [٢] :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعْدامُ

ويستمر يبكى فيهم الرءوس العظام وخلالهم من التأنى والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسْد وما يخلط فرط حِدّتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصَدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصَدى ما يزال يقول اسقونى :

سُلِّطَ الدهرُ والمَنُونُ عليهم فلهم فى صَدَى المقابر هامُ
فعلى إثرهم تَسَاقَطُ نفسى حسراتٍ وذكرهم لى سَقام

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وسادتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التى يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزّها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم [٣] .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدّى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى أدّوها ، كأن يفتكّوا أسيراً ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها [٤] » :

---

(١) المفضليات ص ٢١٧ .
(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .
(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .
(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن .

ربعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرته وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

مُتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدَى حَسَنٌ مجلسُــه غيرُ لُطَمْ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يتقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا فى أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير فى ممدوحيهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عبدة فيهم مفضلية بديعة نظمها فى الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى يديه أسيراً [١] . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى فى أيدى الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً فى غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع ما دبّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفى ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العُدْوانى [٢] والمتلمِّس [٣] .
ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بُجُر الحقائب . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم فى القبائل ، فكثر الشعراء حولهم وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، وممن رحل إليه المتلمس والمرقش العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظم فيه قول حُجْر بن خالد [٤] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أَجِدْ كفعل أبى قابوسَ حزمًا ونائلا

---

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .
(٢) انظر قصيدته فى المفضليات برقمى ٢٩ ، ٣١ .
(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .
(٤) الحيوان ٣ / ٥٨ .

يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضْحى قلوصُ الحمدِ جَرْباء حائلا[١]
فلا ملكٌ ما يبلغنَّك سَعْيُه ولا سوقةٌ ما يمدحنَّك باطلا

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً فى أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ومرَّبنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خِذام ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق فى قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها[٢] ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهى مغامرات تحوَّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخَّل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى وهى تجرى على هذا النمط[٣] :

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليوم المَطيرِ
الكاعبِ الحسناءِ تَرْ فل فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتُهـا فتدافعتْ مَشْىَ القطاةِ إلى الغَدِيرِ

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم . القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التى حمل عليها فلم تلقح .
(٢) المفضليات رقم ٢٠ .
(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

ولَثَمْتُهــا فتنفَّسَتْ كتنفُّس الظَّبْى البَهِيرِ (١)
فدنتْ وقالت يا مُنَذ خَلِّ ما بجسمك من حَرورِ
ما شفَّ جسمى غير حُبِّـ ـكِ فاهدئى عنى وسيرى

ووقف الشعراء طويلا يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبى خازم (٢) :

فظللتَ من فَرْط الصَّبابة والهوى طَرِفًا فؤادُك مثلَ فعل الأَيْهَمِ (٣)

وكانت ذكراها لاتزال تلم بهم ، ومن ثَمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره فى أنفسهم من تباريح الحب (٤) ولهم فى وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبابتهم على شاكلة قول المرقِّش الأصغر (٥) :

صحا قلبُه عنها ، على أن ذِكْرَةً إذا خطرتْ دارتْ به الأَرْضُ قائما

وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعُنها ، وهى ترحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً فى حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت ، وفى معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه فى هذا الوصف المثقِّب العبدى فى قصيدته (٦) :

أفاطمُ قبل بَيْنِكِ مَتِّعينى ومَنْعُكِ ما سألتُ كأن تَبينى
فإنى لو تخالفنى شِـمالى خلافَكِ ما وصلتُ بها يَمينى

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هى وصواحبها فى قلوب الرجال وهن يظهرن بكلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن :

---

(١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .

(٢) المفضليات ص ٣٤٦ .

(٣) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم : المجنون .

(٤) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .

(٥) المفضليات ص ٢٤٥ .

(٦) المفضليات ص ٢٨٨ .

أَرَيْنَ محاسنًا وكَنَنَّ أخرى   من الأَجْياد والبشَرِ المصونِ

ويقول إنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالا. وكن كطبيعة النساء فى كل عصر ينصرفن عن الشَّيب ومن قلّ ماله[1] . ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذى يذهب بأموالهم ، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء فى بذله لا فى ثرائه[2] . وقد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى ، على نحو ما يصور ذلك طرفة فى معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم يتمدحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم . على أن منهم من كان يتسامى فى غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول فى الجاهلية عند عنترة وأضرابه .

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم، بل كانت فى المكان المصون ، وكان الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها فى صدر قصيده ، ونحس عند كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنترة، أنهم يقدمون مغامراتهم فى الكرم وفى الحرب لها لينالوا حبها ، وكان أكثر ما يشجيهم ويبعث الموجدة فى قلوبهم أن تؤسر وتسبي ، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم .

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف ، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه أعينهم فى صحرائهم ، وفى العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء، فيتحدثون عن قَطْعهم للمفاوز البعيدة ، فوق إبلهم ، ويأخذون فى وصفها وصفاً مسهبا على نحو ما هو معروف عن طرفة فى وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير ، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدى السابح ، وصوتها

---

(١) المفضليات ص ٣٥ ، ١٨٦، ٤١٨.   بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت

(٢) المفضليات ص ١١٨ ، ص ١٢٥ .   ١١ ، ١٢ .

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق . وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد[١]، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلابُ هى المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم » [٢]. وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب[٣] .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار . ولامرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذى اتخذه للصيد ، وفيها يقول :

له أيطلا ظَبْيٍ وســاقا نعامَةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريب تَتْفُلِ[٤]

يقول أبو عبيدة : « ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها [٥] وقصرُ ساقيها وعُرْى نسْيها[٦] ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها، ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشى غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسَراته [٧] وتمحُّص[٨] عصبه وتمكن أرساغه[٩] وعرض صَهوته[١٠] .. ومما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَتُ[١١] شِدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصّه[١٢] وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

(١) انظر فى ذلك معلقة لبيد والمفضليات رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد صائداً مسمياً كلابه الستة .

(٢) الحيوان ٢/٢٠ .

(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .

(٤) أيطلا الظبى : خاصرتاه ، الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ، وتقريبه : قفزه ووثبه .

(٢) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

(٦) النسى : عرق فى الساق .

(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى كل عظمتين ، سراته : أعلاه .

(٨) تمحص : شدة .

(٩) الرسغ فى الحيوان : المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .

(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .

(١١) هرت : اتساع .

(١٢) قصه : صدره .

جلده ولُحوق[١] بطنه »[٢] . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة . ولأبى زُبَيْد الطائى قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه الأسد حطماً[٣] ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل الغَنَوى وقد شبَّه فرسه بذئب[٤] :

كسِيدِ الغَضا العادى أضَلَّ جِراءَهُ ... على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الريح يَلْحَبُ[٥]

وذكروا الهر والديك والخنزير فى وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر[٦] :

كأَن هِرًّا جَنيبًا عند مَغْرِضها ... والتفَّ ديكٌ برجليهـا وخِنْزيرُ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى[٧] كما ذكروا الحُبارى والضبّ واليربوع والجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعى ، ويشبه عنترة نفسه إزاء بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابه ، ويقول فى بعض وصفه له[٨] :

رَقُود ضُحَيَّاتٍ كأَن لسـانه ... إذا سمع الأَجراسَ مكحالُ أَرْمَدَا[٩]

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها[١٠] ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به ، وفيه يقول عنترة[١١] :

ظعَنَ الذين فراقَهم أَتوقَّعُ ... وجرى بِبَيْنِهمُ الغرابُ الأَبْقَعُ[١٢]

---

(١) لحوق : ضمور .
(٢) الحيوان ١/٢٧٥ .
(٣) الحيوان ٢/٢٧٤ والأغانى ١١/١٣٢ .
(٤) الحيوان ٤/٤١٦ .
(٥) السيد : الذئب ، والغضا : نبت ، وذئاب الغضا أخبث الذئاب ، أضل جراءه : فقد أولاده فهو يسرع فى عدوه ، يلحب : يمر مرا سريعاً .
(٦) الحيوان ١/٢٧٧ وديوان أوس ص٤٢ جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الحزام منها ، وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب ، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .
(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص ٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ والحيوان ٧/٢١ .
(٨) الحيوان ٤/٣٠٨ .
(٩) رقود الضحى ، ذاك من شأن الأفاعى تنام فى الضحى وتستيقظ فى الظلام ، والأجراس : الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ، جعل لسانه كالمكحال فى دقته وسواده .
(١٠) الحيوان ٦/٣٣٩ وما بعدها .
(١١) الحيوان ٣/٤٤٢ ومختار الشعر الجاهلى ص ٣٩٢ .
(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأَنَّ لَحْيَىْ رأسه جَلمانِ بالأَخبار هَشٌّ مولع[1]

إن الذين نَعَبْتَ لى بفراقهم هم أَسهروا ليلى التِّمامَ فأَوجعوا[2]

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوْحَه وما يهيج فيهم من شوق وشَجا . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره. وينبغى أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورى عن طوق الحمامة والديك والغراب والهدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبى الصلت، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرةُ ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم[3] ووصف البرد وقوارصه والحر وهواجره »[4] وما يجرى فى ديارهم أحياناً من خصب بعد مطر غزير[5] ، وفى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِماً نزل فى مواطن بنى أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف فى شعره وشعر شاعرهم عَبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجدب. وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم فى لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئاً يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانيها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يُقحمونها كما قدمنا فى حماستهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نَحْر الجزور ، يقول ثعلبة بن صُعَيْر فى حماسية له[6] :

أَسُمَىَّ ما يُدْريك أنْ رُبَّ فِتْيَةٍ بيض الوجوه ذوى نَدًى ومآثرِ

باكرْتهم بسِباء جَوْنٍ ذارعٍ قبلَ الصباح وقبل لَغْوِ الطائر[7]

---

(١) حرق : أسود ، وشبه لحييه بالجلمين لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقراضان.

(٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد الطول .

(٣) الحيوان ٦/٢٥٥ وانظر الأصمعيات رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥.

(٤) الحيوان ٥/٧٣ ، ٥/٧٨ وما بعدها وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١.

(٥) الحيوان ٣/١٢٠ والمفضليات ص ٣٣٥.

(٦) المفضليات ص ١٣٠ .

(٧) السباء : اشتراء الخمر، الجون : الزق الأسود. الذارع : المختلط بالماء .

فقَصَرْتُ يومهمُ برنَّةِ شارِفٍ وسماعِ مُدْجِنَةٍ وجَدْوى جازرِ[١]

وهذه الموضوعات التى قدمناها جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدْلى فى تضاعيف قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم فى وصيته لابنه التى يستهلها بقوله[٢] :

وإن المجد أوَّلُه وعُورٌ ومصدر غِبِّه كرمٌ وخِيرُ[٣]

ومن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير والأفوه الأودى وعلقمة بن عَبَدَة ، وهى تكثر فى ميمية الأخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله[٤] :

الحمدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ مما يَضِنُّ به الأقوامُ معلومُ

والجود نافيةٌ للمال مَهْلَكَةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومذموم

وكلُّ حِصْن وإن طالتْ سلامته على دعائمــه لا بُدَّ مهدوم

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول فى بائيته[٥] :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بَصيرٌ بأدْواء النساء طَبيبُ

إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ مالُه فليس له من وُدِّهن نَصِيبُ

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجدها فى معلقة عَبيد بن الأبرص، وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَــةٍ يَئُوبُ وغائبُ الموت لا يئوبُ

ويقول عَبْدة بن الطبيب[٦] :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

---

(١) الشارف : الناقة ، ورنتها : صوتها عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم . وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم .

(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦.

(٣) غبه : عاقبته، الخير: الكرم .

(٤) المفضليات ص ٤٠١ .

(٥) المفضليات ص٣٩٢ .

(٦) المفضليات ص١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلاء الغسانى [١] :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْيَاء

وتلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية ، فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء ، وهى أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتنًّا فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحَظ على معانى الشاعر الجاهلى أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله فى الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التى قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك فى رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أميناً ، يُبْقى فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها وودیانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

(١) الأصمعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا[١] ، وبفراره إن ولّى الأدبار ونكص على أعقابه[٢] ، وفى أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم فى الحروب ، ولهم فى ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها .

وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون فى الحقائق ولا يعدّلون فى علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتى شاذّاً ونادراً . ونظن ظنّا أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذى طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموّهها أو طلاء يزيفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها فى أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثمّ تبدو فى كثير من جوانبها كأنها شىء راسخ ثابت . ويتضح ذلك فى حِكمهم التى تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح فى جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم ، إذ يقدم الشاعر المعانى منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهى حقائق تُسْرَدُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء . واقرأ فى أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعانى دائماً مجسمة فى أشخاص أو فى أشياء . وخُذْ فضائلهم التى طالما أشادوا بها فى حماستهم ومراثيهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق فى مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهنى عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها فى هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادىّ ، ولنرجعْ مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

---

(١) انظر مثلا المفضليات رقم ١٠٨ .

(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ — ٣ .

والبدر والبيضة والدرّة والدُّمْية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبنانها بالعَنَم وثغرها بالبلُّور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجُزَها بالكثيب وساقها بالبرْدية. أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل.

وعلى هذه الشاكلة من الحسية فى التشبيه الشعرُ الجاهلى جميعه، فالشاعر يستقى فى أخيلته من العالم الحسى المترامى حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقّوا النظر فى أجزائه، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلا شديداً، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالا، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته فى معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان.

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، فما يقوله طرفة فى الناقة يقوله فيها غيره، وما يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعراء، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد. وقل ذلك فى غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معانى واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثَمَّ تَبْدو فى أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنى عليهم ذلك ضيقا واضحا فى معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء. واقرأ فى المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعانى، وستجد أيضاً براعة نادرة فى إعادتها وصوغها صوغاً جديداً، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، وخُذْ مثلا تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً، وشاعر يشبهها بها وهى تمد عنقها إلى شجر السَّلم الناضر، يريد أن يستتم بذلك منظراً بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم(١) :

فيوما تُوافينـــا بوجهٍ مُقَسَّمٍ كأَنْ ظبيةٍ تَعْطُو إلى ناضِرِ السَّلَمْ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية فى استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة(٢) :

وتصدَّفتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ صَلْتٍ كمُنْتصِبِ الغزال الأَتْلَعِ

ورابع يجعل وجه الشبه حَوَر العين ، وخامس يجعله فى التنفس كقول المنخّل اليشكرى :

ولثمتُهـــا فتنفَّسَتْ كتنفس الظبى البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلا جديداً. وخُذْ مثلا تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربى(٣) :

وكنا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأقْتما

ويقول طُفَيل الغنوى فى مديح قوم(٤) :

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بَدا ساطعًا فى حِنْدس الليل كوكبُ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة(٥) :

وإنى من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأْوى إليه كواكبه

أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبه(٦)

وألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال فى النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة(٧) :

---

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من القسام وهو الجمال ، وأن فى كأن زائدة ، تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت : أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ، وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقتم : من القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٣/٩٤ .

(٥) الحيوان ٣/٩٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٣/٩٥ ومختار الشعر الجاهلى ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْد منهن كوكبُ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة فى معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثَمّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجعْ إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمونٍ كأَلْواح الإرَان نَسَأْتُها على لاحبٍ كأَنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[1]

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ، فيستمر فى وصفها وكأنه تدلّه بها حبّاً ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينْصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما فى طريقها بكلابه أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبيعى أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يُدخلون هذه الحركة فى المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفى بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظُعن حبيبته وصواحبها فى القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلا بديعاً .

---

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران : تابوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق البين الواضح الذى أثر فيه المشى . البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

وهذه الحركة فى حياتهم التى تعنى عدم الثبات والاستقرار ، و بالتالى تعنى عدم التوقف عند شىء و إطالة النظر فيه هى التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك فى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة . ومن ثَمَّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذى جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى أن القصيدة الطويلة لا تلمّ بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هى كل روابطها ، أما بعد ذلك فهى مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس فى الشعر الجاهلى ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته ، وهو التنقل السريع .

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذى يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامى من حولهم فى غير حدود هو الذى أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هى موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض فى انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر فى هذا الفضاء الصحراوى الواسع الذى لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد ، والذى تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة .

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلا فى وصفهم للحيوان الوحشى فحسب ، بل نراه أيضاً فى وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التى أنشدها المفضّل الضبىّ والتى يسمّيها بقوله[1] :

---

(١) المفضليات ص١٠٨ ، وأجمعت :
عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

ألا أمُّ عمرو أجمعتْ فاستقلَّتِ ... وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقص علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها فى إجمال، بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدّوا العُدَّة للغزو والسلب، يحملون قِسيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين: مِشْعَل والجَبا راجلين، وقد حمل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتِّر عليهم فى الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التى كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملون حُساماً صارماً، بل سيوفاً قاطعة كأنها قِطَع الماء فى الغدير لمعاناً، بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعلَّتْ من دماء مُحْرِمٍ ساق هَدْيَه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن لم يُقتَل أخذوه أسيراً. وينهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

ويكثر الصعاليك من قَصّ مثل هذه المغامرة، ويلقانا فى حماسياتهم كثير من وصف معاركهم، وقد يحاولون سَرْدها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثِّل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبى خازم فى المفضليات، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلا عن يومى النِّسار والُجفار، فالقَصَص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له فى مطوّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى. ونراه ماثلا فى غزلهم على نحو ما مر بنا فى غزلية المنخّل اليشكرى، وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل فى غزل المرقِّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها فى بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهى روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى، فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيباً دقيقاً، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله، إذ كان مشغولا بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

٥

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلى أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهى فى الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب فى الشعر الجاهلى يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقى لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة فى غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التى أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معانى بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أرانا نقول إلا مُعـارا أو مُعادًا من لفظنـا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون فى ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقّح فيه ويهذب ويصفى جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة فى الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتى نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا فى ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته فى عام كامل ، يردّد نظره فى صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستويه فى بنائها[1] .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصْنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع فى طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

---

(١) البيان والتبيين ٢/٩ وما بعدها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته و بعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما ينطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها[1] ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه[2] ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طفيلاً بالمحبر لتزيينه شعره[3] ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره[4] ولقبوا غير شاعر بالنابغة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقف والمتنخل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغه ، فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون فى نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملا ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها ، و برعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليشكرى السابقة . وحقاً هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . واقرأ فى حوليات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥٧ .
(٢) انظر المفضليات (طبعة لايل) ١/٤١٠، ٤٨٥
(٣) المفضليات ١/٤١٠ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١١٢ .

فى هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير فى سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً فى أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلا يشبَّه من الحيوان بمثل الظبى والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبَّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعَسيب والجِذْع وتشبَّه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعَرْفه بالقصبة الرطبة وحافره بقَعْب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالحِباء. وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة فى المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس فى وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف فى التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليَشْكرى لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول[1] :

يَعكُفْنَ مثل أساودِ الـ ـتَّنُّوم لم تُعْكَفْ لزُورِ[2]

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيد بن أبى كاهل بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجه إخراجاً جديداً فقال[3] :

حرّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضحًا كشعاع الشمس فى الغَيْم سَطَعْ[4]

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمَّ عَميرة بن جُعَل بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال[5] :

---

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : الأفاعى ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتهن .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٤) الشتيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .

(٥) المفضليات ص٢٥٩ ،والرديني : الرمح.

جمعتُ رُدَيْنِيًّا كأَنَّ سِنانَهُ سَنا لهب لم يَتَّصِلْ بدُخانِ

وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول[١] :

جادَت عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ[٢]

فترى الذبابَ بها يُغَنِّى وحده هَزِجًا كفعل الشارب المترنِّم

غَرِدًا يَحُكُّ ذِراعَه بذراعِهِ فعل المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذم[٣]

فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرها بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب فى حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين أو زَنْدين فلا تقتدح ، فيستمر فى قدحه لا يفتر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التى تلقانا فى شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من التصريحية والمكنية ، وهى مبثوثة فى أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس تصويره طول الليل وفتوره وبطئه ببعير جائم لا يريم ، إذ يقول فى معلقته مخاطباً الليل :

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلْبِهِ وأَردف أَعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ[٤]

وأنشد ابن المعتز فى كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن حَجَر :

وإنى امرؤٌ أعددتُ للحرب بعدما رأيتُ لها نابًا من الشرِّ أَعْصَلا[٥]

وقول عَلقمة بن عَبَدة :

بل كلُّ قوم وإن عَزُّوا وإن كرموا عَريفُهم بأَثافى الشرِّ مَرْجُومُ[٦]

---

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ، وشبه الحديقة بالدرهم فى استدارته .

(٣) الأجذم : مقطوع اليدين .

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : المعوج فى صلابة .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثافى : الحجارة التى تنصب عليها القدر ، استعارها لنوائب الدهر .

وقول طُفَيل الغَنَوى فى وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيةٍ ... يقتاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ (١)

وقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

حتى إذا التفع الظِّباء بأطـ ... ـراف الظِّلال وقِلْنَ فى الكُنْسِ (٢)

وفى شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات فى دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التى شاعت فى الشعر العباسى وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول فى الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس فى وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا ... كجلمود صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ ... كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزِّلِ (٣)

والطباق واضح فى البيت الأول ومثله الجناس فى البيت الثانى . وقد أنشد المفضل الضبى لعبد الله بن سلمة الغامدى قصيدة كَثُر فى آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بإزاء شاعر عباسى من شعراء البديع ، يقول عبد الله (٤) :

ولقد أصاحبُ صاحبًا ذا مَأْقَةٍ ... بِصِحاب مُطَّلِعِ الأَذَى نِقْرِيسِ (٥)

ولقد أُزاحم ذا الشَّذاةِ بِمِزْحَمٍ ... صَعْبِ البُدَاهَةِ ذى شَذًا وشَرِيسِ (٦)

---

(١) الكور : الرحل ، ناجية : ناقة سريعة.

(٢) التفعت الظباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهى نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهى حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية فى أصل شجرة لتستتر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر فى سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له فى استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشذاة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داء كلِّ مُعَبَّدٍ بِعَنِيَّةٍ غَلَبَتْ على النَّطِّيسِ[1]

فقد جانس فى البيت الأول بين أصاحب وصاحبا وصحاب، وجانس فى البيت الثانى بين أزاحم وبمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس فى البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلى يُعْنَىَ بها حتى يؤثر فى نفوس سامعيه ويخلب ألبابهم، وهى تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فنى ، وخاصة من حيث التصوير ودقته وبراعته ، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتى فيه بالنادر الطريف .

---

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الجرب . النطيس كالنطاسى : الطبيب الماهر .